هـــــذه هى . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

أحب أبا مروان من أجل تمره ... وأعلم أن الجار بالجار أرفق
وأتسم لولا تمـــره ما حببته ... وكان عياض منـه أدنى ومشرق
« غيلان النهشلى »

أطرق الرجل ساعة ، وأنا بإزائه أتفرّس فيه ، وهو زرى الهيئة مضطرب الهندام : قد تخدّد لحمه ، وذوى عوده ، وأدبر شبابه ... وإنّ فى عينيه عبرات مكفوفة يدفعها اليأس ويحبسها الحياء ، وعلى شفتيه آهة عميقة لا تجد لها متنفساً ... وتبدّت لى خواطره تصطرع فى رأسه ، وهو يشرب القهوة فى نهم ، وينفث دخان سيجارته فى لذة ... فأردت أن أجذبه إلىّ ، فقلت : « ما بالك تكتم عنى ذات نفسك ، وقد خلا بنا المكان ؟ » قال : « إنّ فى النفس حديثاً طويلاً ، ولكنى ألفيتك رجلاً غير مَنْ صوّرتُ فى خيالى ! » ... ورقّت رنّات صوته ، حتى خيل إلىّ أن آلام قلبه تعتلج فى صدره ، فتتحدث هى حديثاً كله أنّات ، ثم قال : « ... وأنا لا أستطيع أن أومن بأنك أنت صاحب « ذرينى » ، ومن بعدها « شيطانة تتفلسف » ، وكيف يتأتى لك أن تكتب ما قرأت وما فى دارك إلا الأمر والطاعة ، وإلا الهدوء والطمأنينة ، وإلا السعادة و ... »

قلت : « يا سيدى ، إن المرأة لا تجلب السعادة ، ولكنها أبداً تنضح الشقاء ! »

قال : « كأنك تعنى أن نصف العالم خُلق شقاء للنصف الآخر »

قلت : « ولمَ لا ؟ »

قال : « وبماذا رمتك المرأة فتهدم عليها بمثل كلامك هذا ؟ »

قلت : « يا عجباً ! أفلا ترى أن المرأة كالماء الآسن حين تنعكس عليه أشعة الشمس الذهبية ، فيبدو جميلاً صافياً خلاباً ، فإذا اغتمرتَ فيه اغتمرتَ فى النتن والوحل معاً ؟ »

قال : « وهذا معنى آخر مما يضطرب فى نفسك ، فهل لك أن تسمع قصة عذابى علّك تجد فيها مادة ! »

قلت : « هات ! »

قال : « أما أنا ، فقد نالنى من المرأة عَنَت كبير ... كنا — أنا وهى — زوجين فى رَغد من العيش ، ودَعة من الزمان ورخاء فى البال ؛ وأنا موظف فى الحكومة يُغِلُّ علىّ عملى ما يكفى عدداً ، وفىّ القناعة والرضا ، وهى لا تبسط يدها كل البسط ؛ وتصرمت الأيام ، وأنا أجد فيها سلوة عن الإثم ، وقد ضنّت به الأيام ، وعزاء عن الأم ، وقد سلبتها منى يد القدر ... »

ثم غدر بى الدهر غدرة واحدة ، فقذف بى بين براثن المرض لا أبرأ ولا أستقل ... وانطوت الأشهر وأنا بين الطبيب والدواء والحكومة فى مرض آخر: فالطبيب شره لا يطاق السيل غلّته، والدواء لا يشفى ولا ينقطع ، والحكومة من ورائهما تضع من راتبى قليلاً قليلاً . وأحسست بالهاوية التى أتحدّر إليها رويداً رويداً ... فأشفقت على زوجتى أن تجد لذع الفقر وقد أشفيت عليه ، أو أن ينسرب إلى قلبها الملل وقد طالت علّتى ، وفى رأيى أن أسرّحها لتنطلق إلى متعة قلبها ولذة نفسها ، وهى شابة فيها عقل المرأة ونزعات الأنوثة ...

ونشرتُ على عينى أمها حديث نفسى ، فراحت العجوز إلى ابنتها توسوس ... وجاءت الزوجة — وفى عينيها عبرات تترقرق — تزور حديثاً : « كيف أتخلّى عنك الآن ؟ أفأعيش إلى جانبك سنوات لا أستشعر منك إلا الشهامة والكرم ، وإلا الرجولة والتضحية ؛ ثم أفزع عنك وأنت بين الرض والموز ، لأكون معولاً آخر يهدم بقية فيك تترجاها ؟ »

واطمأنت نفسى إلى حديثها ، فاستقرت

لقد كانت فكرة عابرة ، غير أنها بعثرت حياتها ، فانبعثت هى تكشف لى عن أدران نفسها

ألحت علىّ الحاجة فتحولت عن دارى إلى حجرات ضيقة وضيعة ، ومكرت هى بى فحملت أثاثها إلى دار أبيها إلا حاجات عبث بها البلى ، وجاءت أمها تريد أن تعينى على عيلتى بكلام يتوثب من أضغانه الصلف والزهو ، فأبت كبريائى أن تذل لها ، على حين تعصرنى الفاقة ويثقلنى الدَّين ، وليس لى من أفزع إليه سوى أخى ، وهو بين أولاده وزوجته ورقة حاله فى هموم ...

وأحسستُ من الزوجة الشابة الإغضاء والإهمال ، فهى تنفلت من لدنى — بين الحين والحين — فى تطريتها وزينتها ، تزعم أنها تزور أهلها وصاحباتها ، وهى تنطوى على ساعات من النهار ؛ وأنا بين الشك واليقين لا أستطيع أن أمسكها فتجد مَسّ الضيق والملل ، ولا أن أرسلها فأذوق مرارة الوحدة وعذاب المرض معاً

وضاق بى صدر الحكومة فلفظتنى ، وللحكومة قانون يحكم

على المرضى بالإعدام . وظلت زوجتي تداجيني وتفتن في مرضاتي حتى أرسلت الحكومة إليّ مكافأة مالية لا ترد عادية ولا تدفع فقراً ، غير أن قطرة منها تروي حرّني ... أرسلتها الحكومة فأخذتها الزوجة وطارت ... طارت أحوج ما أكون إليها ، لتذرني وحيداً على فراش المرض والضيق ، لا أجد إلى جانبي سوى خادم صغيرة لا تستطيع شيئاً »

وسكت سكتة طويلة حين اضطربت الكلمات على شفتيه ، وتدفقت العبرات من محجريه لا يستطيع كَبْتَها . فقلتُ : « لا بأس عليك ، يا صاحبي ؟ » قال : « هذا ضعف ، ولعمري لقد كنت أضن به أن يبدو أمام الناس، وهأنذا أريقه على عينيك!» قلت : « لا ضير ، لقد طارت فلا تدعها تنفث فيك من هموم الحياة ، لقد طارت فماذا كان ... ؟ »

قال : «وجاء أخي يرقّه عني بكلمات ... على حين قد حضرني بني ثم تماثلتُ للشفاء وأنا أرزح تحت عبء الدَّين وشدة الصدمة، وتحدّثت إليّ رجولتي ساعة من زمان ، فإذا زوجتي غريبة عني وترامى إليها الخبر ، فهبت تحدثني بلغة المحاكم الشرعية ، وللمحاكم الشرعية لغة هي في عقل المرأة انتقام وتنكيل ، وفي عقل القاضي ثأر واقتصاص ، وفي رأي الزوج مُثْلة وعِبرة ، وفي عيني العَزَب زجر وعظة . ثم هي ـ دائماً ـ تقول للزوج « أيها الأحمق ، لِمَ تزوجت ؟ » وللعزب « أيها العاقل ، إياك إياك ! »

وعشتُ سنة لا أبرح السجن إلا ريثما أعود إلى غيابته ، وما في يدي ما أستطيع أن أدفع به نهم الزوجة ولا غفلة القاضي »

ثم أطرق وقد نفث حديثه في روح الأسى والحزن ، وإن في نفسي غيظاً يحتدم ... ثم قلت : « وهي ؟ » قال : « أما هي فقضت أيام محنتي بين ذراعي حبها الجديد، ثم مكرتْ به ـ بعد أن عصفت بي ـ فإذا هو زوجها» قلت: «يا لله ! ويل للرجل من المرأة»

فقال في هدوء : « من النساء غُل قَمِل يقذفها الله في عنق من يشاء ثم لا يخرجها إلا هو »

قلت : « صدق رسول الله ، فعلام إذن تذهب نفسك حسرات ، وأنت ما تفتأ في شبابك ؟ »

قال : « لا بأس ، فلقد قرّ رأيي على أن أطوي الماضي لأكون رجلاً غيري »

قلت : « نعم ولتكون رجلاً ... رجلاً فيك الرجولة »

كامل محمود حبيب

صـــدر حديثا كتاب :

يقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط وثمنه ٢٥ قرشا ويطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة

وحي الرسالة

في فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات